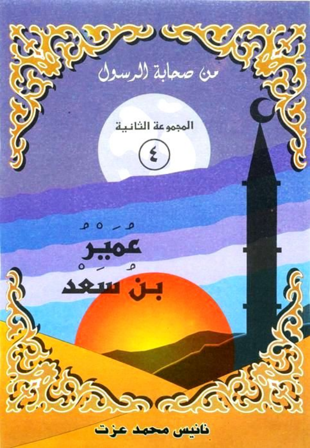

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٤
عُمَيْرُ
بنُ سَعْدٍ
نانيس محمد عزت

عُمَيرُ بنُ سَعْد

دخل أيمَنُ من بابِ المنزلِ وهو غاضِبٌ وصاح : انظُر يـا أبى مـاذا فَعلتْ « بسـمَة » . لقـد أفشَـت سِـرَّنا ، وأضاعَت علينا عُنصرَ المُفاجَأة .

قـالَ الأبُ مُهدِّئـا أيمَـن : اِهـدَأ يـا أيمَـن ، ولا تَرفَـع صَوتَك فى حُضورِ من هو أكبرُ منك سِنّا . وقـل لى فى هُدوء : ماذا فَعلتْ بَسمَة ؟

قالَ أيمَن : تعلَمُ يا أبى أنَّ عيدَ ميلادِ صَديقِنا مُحمَّد ، هو يَومُ الخَميسِ القادِمِ ، وقد اتَّفقْنا جَميعًا ـ أنا وبَسـمَةُ وأصدِقاؤنا فى النّادى ــ أن نَحتفِلَ به فى حَفلٍ صَغـير ، نُقدِّمُ لَه فيهِ هَدِيَّةً مُناسِبَة ، ويَكونُ مُفاجأَةً له .

قالَ أبوه : فِكرَةٌ جَميلَة ، وتُعبِّرُ عن شُعورٍ نَبيل .

قالَ أَيْمَن : ولكنَّ بَسمَةَ أَفشَتِ السِّرّ ، فَنَقَلَتْهُ إلى أُختِ مُحمَّد ، التى نَقَلَتهُ بدَورِها إلى مُحمَّد ، فَفَشَلَتِ المُفاجَأَةُ الَّتى أعْدَدْناها .

قالَ أبوها غاضِبا : أحَقًّا حصلَ مِنكِ هذا يا بَسمَة ؟

أَحنتْ بَسمَةُ رأسَها فى خَجَل ، وقالَت : إنَّما أَردتُ أن أكونَ أوَّلَ من يُهَنِّئُهُ بعيدِ ميلادِهِ ، ولم أَكُنْ أَعلَمُ أنَّ هذا سيُغضِبُ الجَميعَ مِنّى .

قالَ أبوها : من حقِّهِم أن يَغضَبوا يا بَسمَة ، فقد أفْسَدتِ عَليهِم عُنصُرَ المُفاجَأَة . ثمَّ إنَّ للصُّحبَةِ آدابًا يجِبُ اتِّباعُها ، فيجَبُ ألاّ نَنقُلَ الكلامَ من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ أُخرَى .

قالَ أَيْمَن : أتَعلَمُ يا أبى أنَّ جَميعَ أصدِقائِنا يَقولون : إنَّ بَسمَةَ « فَتّانَة » ؟

سَمِعتْ بَسمَةُ ذَلِك ، فانْخرَطَتْ فى البُكاء ، فقال لها أبوها : لا تَبكى يا بَسمَة . وسأقُصُّ علَيكُما قِصَّةَ أَحَدِ

الصَّحابَة ، هو عُمَيرُ بنُ سَعد ، وأعتقِدُ أنَّكِ سَتَستَفيدينَ مِنها يا بُنَيَّتى :

أَسْلَم عُميرُ وهو فى العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِه ــ وكانَ مِنْ الأَنْصارِ ـ فَنَشأَ على تعاليمِ الإسلام وترعرعَ فى ظلِ آدابه الكريمةِ .

كانَ لعُمَيرِ بن سَعدٍ قَريبٌ له غَنِيّ ، اسْمُهُ الجلاسُ بنُ سُوَيدِ بن الصّامِت . وكانَ الجلاس يَعطِفُ عَليهِ كَثيرًا ويُحسِنُ مُعامَلَته .

وذاتَ يَومٍ أعلَنَ الرَّسول ـ صلّى اللّه عَليهِ وسَلَّم ــ استِعدادَهُ لغَزوِ الرّوم ــ فى غَزوَةِ تَبوك ــ والجَميعُ يَعلَمون مدَى قُوَّةِ الرّوم ، وبُعدُ المَسافَةِ إلَيهِم ، وعِظَمِ المَشَقَّةِ فى حَربِهم . فظَهرَت النُّفوسُ على حَقيقَتِها ، وبدأَ المُنافِقونَ يَكشِفونَ عن أنفُسِهم وعن وُجوهِهِمُ القَبيحَة ، وكانَ من بين هَؤلاء الجلاسُ بنُ سُوَيد ، فقد

تَقاعسَ عن الإنْفاق فى إعْـدادِ جَيشِ المُسلِمين ، على الرُّغمِ من تَسابُقِ النّاس جَميعًا فى هـذا السَّبيل ، فقـدَّمَ عُثمانُ بنُ عَفّانَ للنَّبىِّ ـ صلّى اللّه عَليهِ وسَلّم ـ ألفَ دينارٍ ذهَبا ، وقدَّمَ عبدُ الرَّحمن بنُ عَوفٍ مِـائَتَىْ أوقِيَّـةٍ مِـنَ الذَّهَـب ، وتَسـابَقتِ النِّسـاءُ فى خَلعِ حُلِيِّهِنَّ وتَقديمِهـا للرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ يُشارِكنَ بها فى إعْدادِ الجَيْش . وعزَّ على عُمَيرٍ أن يرَى قريبَهُ الجَلاّسَ ابنَ سُوَيْد ـ على الرُّغـمِ مِـن سَعَةِ رِزقِهِ وغِناه ـ يَتقـاعَسُ عـن المُشارَكَةِ فى هذا السَّبيل . فسأَلَه عن السَّبَبِ فـى تـأخُرِهِ وإحْجامِهِ عن المُشارَكَةِ فيه ، فردَّ عَليهِ الجَلاّسُ بقَولِه :

ـ إنْ كـانَ مُحمَّـدٌ صادِقًا فيما يَدَّعيهِ مـن النُّبوَّة ، فنحنُ شرٌّ منَ الحَمير .

تَساءَلَ أيْمَن : ماذا كان يَعنى بقَولِهِ هذا يا أبى ؟

قالَ أبوه : كذَّبَ الجلاّسُ بقولِهِ هذا مُحَمَّدا ، وزعَـمَ أنّه مُدَّعٍ للنُّبُوَّة .

قالَ أيمَن : لقدِ ارتَدَّ بقَولِهِ هذا عنِ الإسْلام .

قالَ أبوه : وهَذا ما أفزَعَ عُمَيرًا وحزَّ فى نَفسِه . فهـا هـو يَسـمعُ قريبَـهُ الّـذى طالَمـا عَطـفَ عَليْـهِ وأحسَـنَ مُعامَلَته ، يُسفِّهُ الرَّسـولَ ــ صلّى اللّـه عَليـهِ وسَلَّم ــ ويُعلنُ عن كُفرهِ به . واحْتارَ عُمَـيرٌ مـاذا يَفعل ؟ أيُبلِّـغُ الرَّسولَ بما عَلِـم ، فيكونَ قـد أخَـلَّ بـآدابِ المجلِس أم يَتكَتَّمُ ما سَمِعَه ، فتكونَ خيانَةً للدِّينِ ولِلرَّسولِ ــ صلّى اللّه عَليهِ وسَلَّم ــ ؟

قالَتْ بَسمَة : حقًّا إنَّهُ مَوقِفٌ حَرِج ، فكيفَ اسْتطاعَ أن يَخرُجَ من هذا المَأزق ؟

قالَ أبـوه : راعَـى عُمـيْرٌ آدابَ المجلس ، فلـم يَنقُـل لأحَـدٍ مـا قالَـهُ الجَـلاّس ، وفـى نَفسِ الوَقـت ، أخبرَ

الرَّسولَ ـ صلَّى اللَّه عَليهِ وسَلَّم ـ بما يُضمِرهُ الجلاَّسُ من فِتنةٍ ونفاق .

قالَ أيمَن : أهِيَ لُغز ؟ كيفَ أمكَنَهُ أن يُوفِّقَ بين الأمْرَين ؟

ضحكَ أبوه وقالَ : قالَ عُمَيرٌ للجلاَّس : لقد قلتَ مَقالَةً إن ذَكَرتُها فضحتُك ، وإن أخفيتُها خُنتُ أمانَتى ، وأهلكْتُ نَفسى ودينى . وقد قرَّ رأيى أن أمْضى إلَى الرَّسولِ وأُخبرَهُ بما قُلْت ، فكُنْ على بَيِّنَةٍ من أمرِك .

وهكَذا نَرى أنَّ عُمَيرًا أدَّى أمانَةَ الصُّحبَة ، فلم يقُم بدَورِ المُتَسمِّعِ الواشى ، وفى نَفسِ الوَقتِ أدَّى حقَّ دينِه ، فكشَفَ عن نِفاقِ قَريبه . كما أعْطَى الجلاَّسَ الفُرصَةَ ليَرجِعَ عن كُفرِه ، ويَستَغفِرَ رَبَّه .

ومَضَى عُمَيرٌ وأخبَرَ الرَّسولَ ـ صلَّى اللَّه عَليهِ وسَلَّم ـ بأمرِ الجَلاَّس . وطَلَبَ الرَّسولُ الجَلاَّسَ وسألَه ،

فأنكرَ الجلاّسُ مَقولَتَه ، بل وحلفَ باللّهِ كَذِبًا أنه لَمْ يَقُل ما نُسِبَ إليه . فشكَّ جميعُ الحاضِرينَ فى عُمَير ، وعَزَوا ذلك إلى صِغَرِ سِنّه .

ولكن ظَهرَتِ الحَقيقة ، وتَنزّلَتِ الآياتُ القُرآنيّةُ تؤكّدُ صِدقَ عُمَير ، فقد قالَ اللّه تعالى : ﴿ يَحلِفونَ باللّهِ ما قالوا ولقد قالوا كلِمَةَ الكُفرِ وكَفروا بعد إسْلامِهم ، وهَمّوا بما لم يَنالوا وما نَقَموا إلاّ أن أغناهُمُ اللّهُ ورَسولُهُ من فَضلِه ، فإنْ يَتوبوا يَكُ خيرًا لهم وإنْ يَتولّوا يُعذّبْهُمُ اللّهُ عَذابًا أليمًا فى الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهم فى الأرضِ من وليٍّ ولا نَصير ﴾ .

فارتعدَ الجَلاّسُ مِمّا سمِع وأعلنَ تَوبَتَهُ لِلّهِ تَعالَى . وقال : صدقَ عُمَيرٌ يا رسولَ اللّهِ وكنتُ من الكاذِبين ، وأسألُكَ اللّهَ أن تَقبَلَ تَوبَتى .

فمدَّ الرَّسولُ يدهُ وأمسكَ أُذُنَ عُمَير ، وقالَ لَه : وفَتْ أُذُنُكَ يا غُلامُ ما سَمِعَت وصدَّقَكَ رَبُّك .

وظلَّ الجَلاَّسُ يذكُر فضلَ عُمَيرٍ عليه حتَّى آخِرِ أيّامِه ، فكانَ دائمًا يَقول : جَزاه اللّـهُ عَنّى خَيرا ، فقد أنقذَنى من الكُفر ، وأعتقَ رَقَبتى منَ النّار .

قالَ أيْمَن : إنَّهُ حقًّا غُلامٌ ذَكِىّ ، تَصرَّفَ بِحِكمَةٍ ورَجاحَةِ عَقل . وماذا عنهُ يا أبى ، وكيفَ سارَت حَياتُهُ بعدَ ما كَبِر ؟

قالَ أبوه : كانَ عُمَيرٌ بعدَ ما كَبرَ مِثالاً حيًّا للزُّهدِ والتَّقشُّفِ والوَرَع ، ويَظهرُ ذلكَ جَليًّا فى عَهدِ سيِّدنا عُمَرَ بنِ الخَطّاب ، ثانى الخُلَفاءِ الرّاشِدين . فقد ولاَّهُ إمارَةَ حِمْص بالشّام . وحَزِنَ عُمَيرٌ لذلكَ ولم يفرَح ، فهو يُفضِّلُ الجِهادَ فى سَبيلِ اللّهِ عنِ الوِلايَةِ وتَبعاتِها .

ولكنَّها المسئوليَّةُ الَّتى يَجبُ على الجَميعِ أن يُشاركوا فيها .

وسافَرَ عُمَيرٌ إلى الشَّام ، ومَضَى عامٌ لم يَبعَثْ خِلالَهُ بأيَّةِ رِسالَةٍ أو أيَّةِ أمْوالٍ لبَيتِ المال . وقَلِقَ الخَليفَةُ عُمَرُ ابنُ الخَطَّاب ، وبَعثَ إلَيه يَستَدعيه .

وأخَذَ عُمَيرٌ معه كلَّ ما يَملِكُ من مَتاع ، وشدَّ الرِّحالَ إلى المَدينَة ، فما إنْ وصَلَ إلَيْها حتَّى ذَهبَ ليُقابِلَ الخَليفَة .

وتعجَّبَ الخَليفَةُ من مَظهَرِ عُمَير ، فقد أعْياهُ السَّفَر ، وعَلاهُ الغُبار ، وهَزُلَ جِسمُهُ وضَعُف . وسأله الخَليفَةُ مُستَفسِرًا :

ـ أجئتَ من الشَّامِ ماشِيًا على قَدَمَيْك ؟ ألَيستْ لكَ دابَّةٌ تَركَبُها ؟

فردَّ عَليـهِ عُمَير : لم يُعطونـي د ابَّـة ، وأنـا لم أطلُبْهـا منهم .

وسألهُ عمّا رجَعَ به مَعَهُ مِنَ الشّام ؟

قالَ عُمَير : رَجعتُ بكلِّ ما أملِك . فهذا جرابى أحمِلُ فيهِ زادى ، وقَصعَتى آكلُ فيها ، وقربة ماء أحْمِل فيهـا وَضوئى وشَرابى ، وعَصاىَ أتوكَّأُ عَليها .

قالَتْ بَسمَة : أهذه الأشياءُ فقط هى كلُّ ما يَملِك ؟

قالَ أبوها : إنَّهم أُناسٌ عَشقوا الزُّهْد ، وفضَّلوا نَعيـمَ الآخِرَةِ على نَعيمِ الدُّنيا .

وعِندَما سأله عما جاءَ به لبيتِ المال ، ردَّ بقَوله :

ــ لقـد ولِّيـتُ بعـضَ الصَّالحينَ أمرَ جبايَـةِ الأمْـوال ووَضعِها فى مَواضِعِهـا ، وأنفقتُ مِنها علَى الفُقَـراء ، فلم يبقَ مِنها ما يَزيدُ لأبعَثَهُ إليْك .

فسُرَّ عُمرُ لحُسنِ اختِيارِهِ الوالِيَ الصَّحيحَ ، وجدَّد لـه العَهْد . ولكِنَّ عُميْرًا رفضَ ذَلِـك ، وفضَّـلَ البَقـاءَ بأطْرافِ المَدينَةِ مع أهلِه .

ولم يمضِ على ذَهابِ عُمَيرٍ إلى قريَتِهِ بأطْرافِ المَدينَة ، حتَّى بعثَ الخَليفَـةُ عُمـرُ بـنُ الخَطَّـابِ إليـه مـن يَخْتَبِرُه ويَستَوثِقُ من أمْرِه .

فطلبَ من أحَدِ رجالـه ، ويُدعَـى الحـارِثَ أن يَذهـبَ إليه ، ويَنزِلَ عِندَه كضَيفٍ فـي مَنزِله ، فإن رأى عليه آثارَ النِّعمَة فليَعُد إليـه ويُخبِرُه ، وإن وَجـدَه فـي بُـؤسٍ شديد ، فليُعطِه مِائةَ دينار أعطاها لَه .

ونزلَ الرَّجلُ ضيفًا على عُمَير ، وقد خُصِّصَ لـه كـلَّ لَيلَةٍ قُرصٌ من الشَّعير . ولم تَمضِ عَليه بضعَـةُ أيَّام عِنـدَ عُمير ، حتَّى جاءَهُ رَجلٌ وقالَ له : لقد أجْهَـدتَ عُمَـيرًا وأهلَه . فليسَ لَهم إلاّ هذا القُرصَ الَّذى يُؤثِرونَك به عَلى

أنفُسِهِم ، والآنَ وقد أضرَّ بهمُ الجوعُ والجَهد ، فإنْ رَأيتَ أن تَتحوَّلَ عَنهُم إلَيَّ فافْعَل .

عِندئذٍ قدَّم الحارثُ المِائةَ الدينار إلَى عُمَير ، الَّذى أبَى أن يَأخُذَها . ولكنَّ زَوجَةَ عُمَير راحَتْ تَحثُّهُ على أخْذِها . فإنْ لم يَنتفِع هو بها لِنَفسِه ، فهُناك الكَثيرونَ من أهْلِ القَريةِ الَّذينَ يَحتاجونَ إليها . وبالفِعلِ أخذَ عُميرُ الدَّنانير ، ولكنّها لم تَبت فى دارِه ، وكانتْ من نَصيبِ الفُقَراءِ وأبناءِ الشُّهَداء .

قالَ أيْمَن : ولِماذا أرادَ سَيِّدُنا عُمرُ أن يَختَبرَه ؟ ألَمْ يكنْ يَثِقُ به ؟

قال أبوه : حاشا لِلّه يا أيمَن . ولكنّها طَبيعَةُ سيِّدِنا عُمرَ والمُسلِمينَ الأوائل ، فهُم حَريصونَ دائمًا على تَقصِّى أمورِ رَعاياهُم ، ويَجِبُ ألاّ يَقصِّروا فيها ، فسيُسألونَ عَنها يَومَ القِيامَة .

ونَعودُ لعُمَير ، فنَجدُ أنَّ الخَليفَةَ ما إن سَمِعَ من الحارثِ عن مدَى فَقرِ عُمَيرٍ وزُهدِه ، حتّى طلبَهُ لمُقابَلته :

وعندَما عرف أنَّه تصدَّق بالمائَةِ الدِّينار كُلِّها ، أمرَ له بحِمل بَعيرٍ من الطَّعام وبثَوبَين . وبعُزوفِ القانِع رَفضَ عُميرٌ الطَّعامَ وقال : لقد تركتُ عندَ أهلى صاعَيْن من الشَّعير ، وإلى أن نَأكلَهُما يَكونُ اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالى قد جاءَنا برزقِنا . أمّا الثَّوبان فآخُذُهما لِزوجَتى ، فقد بَلِيَ ثَوبُها وكادَت أنْ تَعرَى .

ولم يمض على هَذا اللِّقاء وقتٌ طويل ، حتّى لَقِيَ عُمَيرٌ رَبَّه . لقَد مضَى وليس مَعهُ إلاّ نورُهُ وهُداه ، وورَعُهُ وتُقاه .

وحينَ عِلمَ الخَليفَةُ عُمرُ بنَبأ مَوته ، قال : وَدِدتُ لو أنَّ لى رِجالاً مثلَ عُمَيرِ بن سَعد ، أستَعين بهم فى أعْمالِ

المُسلِمين .

قالَ أيمَن : لقَد ضَربَ عُميرٌ أفضَلَ مِثالٍ في الأخلاقِ الحَميدة ، والزُّهدِ والوَرَع .

قالَ أبوه : والآنَ يا بَسمَةُ اذْهَبي إلى أصْدِقائك ، واعْتَذِري لَهم عن إفْشائِكِ سِرَّهُم ، واحْرِصي دائِمًا على آدابِ الصُّحبَة ، حتّى تَتغيَّرَ فِكرَتُهُم عنك .

قالَت بسمة : بإذنِ اللّه سَأفعَلُ يا أبي .